المحاضرة السادسة علم الكلام والمذاهب الفلسفية

1-تعريف علم الكلام:

علم الكلام هو علم إقامة الأدلة على صحة العقائد الإيمانية، فقد عرف علماء الكلام ذلك العلم بأنه: "علم يُقْتَدر به على إثبات العقائد الدينية مُكْتَسَبة من أدلتها اليقينية: القرآن والسنة الصحيحة لإقامة الحجج والبراهين العقلية والنقلية ورد الشبهات عن الإسلام".

وعرَّفه ابن خلدون بأنه: "هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية".
وعُرِّف أيضاً بأنه: "علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام".
وهو: "باب من الاعتبار في أصول الدين يدور النظر منه على محض العقل في التحسين، والتقبيح، والإحالة، والتصحيح، والإيجاب، والتجويز، والاقتدار، والتعديل، والتحوير، والتوحيد والتفكير".

فقد سمى العلماء ما قاموا به في حماية مرتبة الإسلام بعلم الفقه، وسموا ما قاموا به من مجهود في مجال بيان وحماية العقيدة الإسلامية بـ(علم العقيدة) أو (علم التوحيد) أو (علم أصول الدين) أو (علم الكلام) وهذا العلم هو الذي يحفظ درجة الإيمان. فعلم الكلام، وعلم العقيدة، وعلم أصول الدين، وعلم التوحيد، أربعة أسماء مترادفة لمسمى واحد، وسُمِّي بعلم التوحيد؛ لأن مبحث الوحدانية أشهر مباحثه، وسمي بعلم أصول الدين؛ لابتناء الدين عليه. وسماه أبو حنيفة الذي يعتبر "أول متكلم في الإسلام" باسم الفقه الأكبر، وفي "مجمع السلوك" يسمى بعلم النظر والاستدلال، ويسمى أيضا بعلم التوحيد والصفات، وفي شرح العقائد النسفية لسعد الدين التفتازاني هو: "العلم المتعلق بالأحكام الفرعية أي العلمية يسمى علم الشرائع والأحكام، وبالأحكام الأصلية أي الاعتقادية يسمى علم التوحيد والصفات".

2- سبب تسمية علم الكلام بهذا الاسم:

طلقت عدة تسميات على ذلك العلم الذي يتناول أصول الدين، فلقد سماه أبو حنيفة بالفقه الأكبر من حيث إنه يتعلق بالأحكام الاعتقادية الأصلية في مقابل علم الفقه الذي يتعلق بالأحكام الفرعية العملية. وفي شرح العقائد النسفية يسميه التفتازاني علم التوحيد والصفات فيذكر أن العلم المتعلق

بالأحكام الفرعية أي العملية يسمى علم الشرائع والأحكام، وبالأحكام الأصلية أي الاعتقادية يسمى علم التوحيد والصفات.

والمشهور هو تسمية ذلك العلم بعلم الكلام، وذلك لعدة أسباب، منها أن مسألة الكلام الإلهي كانت أشهر مباحثه فسمى الكل باسم أشهر أجزائه، وأيضا سمي بعلم الكلام لأنه يورث قدرة على الكلام، وأيضا لأن نسبة هذا العلم للعلوم الإسلامية كنسبة المنطق إلى الفلسفة فسمي بالكلام، وذلك حتى تقع المخالفة اللفظية بين الاسمين وأيضا لأنه أول ما يجب من العلوم، والكلام سبب لتعليم العلوم وتعلمها فكان سببا لها في الجملة، وأيضا لأن مباحث هذا العلم مباحث نظرية فهو يبحث في الأمور الاعتقادية التي لا يندرج تحتها الفعل، أما الفقه فهو يبحث في أحكام عملية يندرج تحتها فعل، وعلى هذا فالكلام مقابل الفعل، والمتكلمون قوم يقولون في أمور ليس تحتها عمل، فكلامهم نظري لفظي لا يتعلق به فعل، بخلاف الفقهاء الباحثين في الأحكام الشرعية العملية. وقد يسمى بعلم الكلام بما رواه جلال الدين السيوطي في ذم أهل البدع وهم الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعمله وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون.

ويقول سعد الدين التفتازاني في بيان أسباب تسمية هذا العلم، باسم: علم الكلام، فقال: "لأن عنوان مباحثه كان قولهم: الكلام في كذا وكذا؛ ولأن مسألة الكلام كان أشهر مباحثه وأكثرها نزاعًا وجدالًا، حتى إن بعض المتغلبة قتل كثيرًا من أهل الحق؛ لعدم قولهم بخلق القرآن".

وذهب الشهرستاني في الملل والنحل إلى أن سبب تسميته بهذا الاسم: "إما لأن أظهر مسألة تكلموا فيها وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام، فسمي النوع باسمها، وإما لمقابلتهم الفلاسفة في تسميتهم فنا من فنون علمهم بالمنطق، والمنطق والكلام مترادفان". ويعلل عضد الدين الإيجي تسمية علم الكلام بأسباب مماثلة بقوله: "إنما سمي كلاما إما لأنه بإزاء المنطق للفلاسفة، أو لأن أبوابه عنونت أولا بالكلام في كذا، أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثر فيه التناحر والسفك فغلب عليه، أو لأنه يورث القدرة على الكلام في الشرعيات ومع الخصم". والأرجح أن علة تسميته بالكلام وعلم الكلام، راجعة لاشتهاره بالخوض في موضوع كلام الله تحديدا.

3- نشأة علم الكلام وتطوره:

من خلال استعراض كتب العقيدة والفرق الإسلامية، يتضح أن الكلام في العقيدة ظهر في أواخر عصر الصحابة رضي الله عنهم، ولم يكن بعد قد اتضحت معالمه، وأصبح هو الأصل في تقرير العقيدة، ولكن ظل الكلام في هذه الحقبة في بعض جوانب العقيدة دون البعض، وموافقة أغلب المتكلمين لأهل السنة في سائر أبواب العقيدة، حتى إذا اجتمعت هذه الأصول التي تكلم فيها المتكلمون ولملم شتاتها ظهر علم الكلام الذي يمثل الشق والطرف المخالف لأهل السنة في إثبات وتقرير العقائد ابتداء على أيدي المعتزلة.

ولقد انتقل علم الكلام بهذه المراحل، والأطوار جميعاً حتى صار ظاهرة تحمل العامة على مقتضاه، وتمثل هذه المرحلة منعطفاً خطيراً في عقيدة الأمة، وذلك لاضطلاع الخلافة الإسلامية

عليها، وهو سبق خطير ليس له نظير قبله في تاريخ خلفاء الأمة، وكان ذلك في زمن المأمون العباسي، وهذه هي مرحلة الاستقرار الأول لعلم الكلام.
يقول الشهرستاني: "ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون، فخلطت مناهجها بمناهج علم الكلام، وأفردتها فناً من فنون العلم، وسمتها علم الكلام، إما لأن أظهر مسألة تكلموا فيها وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام، فسمي النوع باسمها، وإما لمقابلتهم الفلاسفة في تسميتهم فناً من فنون علمهم بالمنطق، والمنطق والكلام مترادفان" .

4- مراحل علم الكلام:

ومر علم الكلام بأربع مراحل :

المرحلة الأولى – وهي مرحلة قدامى المتكلمين، كواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وأبي الهذيل العلاف، وإبراهيم النظام، وغيرهم.وقد تميزت هذه المرحلة بالتأثر بالمصطلحات اليونانية، وخاصة عند المتأخرين منهم كالعلاف، حيث ترجمت كتب الفلسفة اليونانية، وقد كانت المباحث الكلامية في هذه المرحلة متناثرة حسب موضوعاتها التي يتفق الكلام فيها دون وضع قواعد صريحة لهذا العلم، كما خلت هذه المرحلة من الاستعانة بعلم المنطق الأرسطي.
المرحلة الثانية : وهي المرحلة التي دخل فيها الأشاعرة معترك الكلام في مقابل المعتزلة، وتعد هذه المرحلة أكثر تطوراً، نظراً لوضع قواعد علم الكلام ومقدماته التي يحتاج إليها الدارس مثل إثبات الجوهر ، الفرد وغيره.
المرحلة الثالثة : حيث تتميز هذه المرحلة بمناقشة كلام الفلاسفة وإدخال ذلك في علم الكلام كما تتميز أيضاً باستعمال المنطق الأرسطي في مقدمات علم الكلام ودراسة أدلته وبراهينه.
المرحلة الرابعة : تتميز بالخلط بين مذاهب الفلسفة والكلام واشتباه الأمر فيها على الكاتب والقارئ جميعاً. ثم التقليد المحض لتلك الآراء من غير نظر في أصولها .

5-أسباب نشأة علم الكلام:

1- تسامح المسلمين: فلقد كانت شروط الفتح الإسلامي تسمح ببقاء بذور الحضارات المختلفة عند طوائف كبيرة من الأهالي الذين واصلوا التمتع بعاداتهم وقوانينهم على شريطة أن يعطوا الجزية، وكان طبيعياً أن تتأسس الروابط والعلاقات بين الفاتحين وأهل البلاد في وقت مبكر سواء أكان ذلك بسبب الحوار أم بسبب اعتناق الإسلام، وكان قد التحق بالإسلام طوائف وفئام من كل ملة، دخلوا حاملين لما كان عندهم من فلسفات وديانات راغبين أن يصلوا بين الإسلام وبين تلك الأديان والفلسفات، فثارت الشبهات بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن ، ولاشك أن هذا التمازج والاختلاط والتوسع في الفتوحات مع السماح ببقاء بذور ورواسب الحضارات السابقة كان له الأثر في نشأة علم الكلام ولم يستطع المصلحون أن يواجهوا تلك الفتنة وإخمادها بل على العكس من ذلك.
2- ما إن فتحت البلدان على المسلمين، وتوسعت الرقعة التي يظلها الإسلام بظله، حتى تأثر

المسلمون بما وفد عليهم من عوامل ومؤثرات، وحتى اختلطوا بأبناء الأمم المفتوحة الذين كانوا متأثرين بسابق حضارتهم، وما تحمله ثقافتهم ودياناتهم من أفكار ومعتقدات بل ومناهج نظر وبحث، تختلف باختلاف تلك الأمم، إلى جانب أن الكثير من أبناء الأمم قد دخلوا الإسلام حاملين ذلك التراث المثقل بركام التصورات القديمة، والمناهج الضالة ، فتأثر بهم من تأثر من أبناء المسلمين, وركبوا من المناهج مراكب الوافدين، فجاءت الثمار تحمل مناهج استدلال غير المنهج الذي عرفه السلف من الصحابة والتابعين.

3- وهناك سبب آخر من أهم أسباب انتشار الظاهرة الكلامية، ذلك السبب هو حركة التعريب – الترجمة – لكتب الفلسفة والمنطق، وهي من أعظم أبواب الشر التي فتحت في زمن المأمون، فكثر تعريب كتب فلاسفة اليونان الأوائل, مما كان له أسوأ الأثر في تكدير صفو العقيدة، وبلبلة الناس وشغلهم بالمنطق الإغريقي عن الكتاب والسنة, حيث ترجمت العديد من الكتب مثل كتاب (الطبيعة), وكتاب (ما بعد الطبيعة) لأرسطو، وترجم كتاب (كليلة ودمنة), وكثير من كتب الكيمياء, والطب, والنجوم مثل (المجسطي)، وكتاب (الحكم الذهبية) لفيثاغورث، ومصنفات أبقراط, وجالينوس, وكتاب (طيماوس) لأفلاطون، و(السياسة) له أيضاً، وكتاب (النواميس)، و(جوامع المحاورات) له أيضاً .

6- بين الفلسفة وعلم الكلام:

غالباً ما يتم مقارنة علم الكلام بمصطلح الفلسفة، وتعود جذور كلمة "فلسفة" إلى اللغة اليونانية philosophia وتعني حب الحكمة. عندما يستخلص علماء العصر الحديث هذا التباين بين علم الكلام والفلسفة يفترضون أن علم الكلام غير فلسفي أو حتى معادي للفلسفة، فهم يسترشدون بتقاليد العصور الوسطى نفسها؛ وتحديداً لعالِمَين قد اعتبرا نفسيهما فلاسفةً وهما الفارابي وابن رشد.
فيرى علماء العصر الحديث أن علماء الدين المسلمين "المتكلمين" -وهم المختصون بعلم الكلام- قد شاركوا بمجرد حجج جدلية، بينما قدّم الفلاسفة البراهين. لا يبني عالم الدين حجته على المبادئ الأولى -وهي أي اقتراح أو افتراض أساسي وتأسيسي وبديهي لا يمكن استخلاصه من أي اقتراح أو افتراض آخر- لكنه يدافع فقط عن تفسيره المفضل للكتاب المقدس ضد التفسيرات المنافسة.
ازدرى ابن رشد النتائج وكان يشكو من أنها يمكن أن تؤدي إلى انشقاقٍ عنيف؛ فكان يرى أن فيلسوفاً فقط بإمكانه أن يقدّم قراءة موثوقة حقاً للقرآن، لأن الفيلسوف يعرف ما هو صحيح بناء على أسسٍ مستقلةٍ وهي أسس علوم أرسطو.

7- الفرق الكلامية المشهورة في العصر العباسي:

أ- المعتزلة:

المعتزلة فرقة إسلامية نشأت في أواخر العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي، وقد اعتمدت على العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية لتأثرها ببعض الفلسفات المستوردة مما أدى

إلى انحرافها عن عقيدة أهل السنة والجماعة. وقد أطلق عليها أسماء مختلفة منها: المعتزلة والقدرية والعدلية وأهل العدل والتوحيد والمقتصدة والوعيدية.
و اختلف الباحثون في وقت ظهور المعتزلة كاختلافهم في أصل تسميتهما، وأهم الأقوال في ذلك قولان:
الأول: قول من يرى أنها ابتدأت في قوم من أصحاب علي – رضي الله عنه – اعتزلوا السياسة، وانصرفوا إلى العقائد، عندما نزل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية .
يقول الملطي: ". . . وهم سموا أنفسهم معتزلة؛ وذلك عندما بايع الحسن بن علي معاوية وسلم الأمر إليه اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس – وذلك أنهم كانوا من أصحاب علي – ولزموا منازلهم ومساجدهم، وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة
القول الثاني: قول الأكثرية من الباحثين. يرى هؤلاء أن رأس المعتزلة هو واصل بن عطاء (تـ131هـ)، وقد كان ممن يحضر مجلس الحسن البصري في زمان فتنة الأزارقة ، فثارت تلك المسألة التي شغلت الأذهان في ذلك العصر، وهي مسألة مرتكبي الكبيرة، وذلك أنه دخل رجل على الحسن البصري في حلقته في مسجد البصرة، وبين له مذهب الخوارج في الكبيرة، ومذهب المرجئة، وطلب منه بيان الحكم في ذلك، ففكر الحسن، وقبل إجابته قال واصل بن عطاء: أنا أقول أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن بإطلاق، ولا كافر بإطلاق، بل هو في منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر، فطرده الحسن واعتزل في ناحية من المسجد يقرر ما أجاب به على أصحابه .
وقد استقوا آراءهم من المقالات والآراء السائدة في عصرهم آنذاك؛ وخصوصا البصرة. ففكرة الاختيار ومسئولية الإنسان عن أفعاله أخذها المعتزلة عن القدرية، وعن الجهمية أصحاب الجهم بن صفوان تلقف المعتزلة القول بنفي الصفات وخلق القرآن، وعدم رؤية الله بالأبصار في الآخرة، وهذا الالتقاء يفسر خلط بعض الدارسين بين الجهمية والمعتزلة والقدرية. كما أخذ المعتزلة مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن الخوارج. كما اتفقوا مع الشيعة في كثير من الآراء الخاصة بالإمامة، كقولهم بوجوب وجود الإمام في كل عصر فضلا عن تجويزهم للتأويل حتى إن ابن المرتضى يرجع أن واصلا وعمرو بن عبيد شيخي الاعتزال تتلمذا على أبي هاشم بن محمد بن الحنفية.
أما المكان الذي نشأ فيه الاعتزال، فإنه يكاد يجمع الباحثون على أنه البصرة، ولكن بعضهم يقول: إنه نشأ بالمدينة استنادا إلى أن المعتزلة السياسيين كانوا في المدينة، وكذلك الزهاد، وعلى ما يزعمه بعض الناس من أن أول من قام بالاعتزال أبو هاشم عبد الله والحسن ابنا محمد بن الحنفية، والاثنان كانا يسكنان المدينة، وبالمدينة ولد واصل بن عطاء وسكن فيها في صباه، وأخذ الاعتزال عن أبي هاشم الذي تقدم ذكره آنفا، يقول الملطي: "إن واصلا حمل الاعتزال معه من المدينة إلى البصرة" .

- وفي العهد العباسي برز المعتزلة في عهد المأمون حيث اعتنق الاعتزال عن طريق بشر المريسي وثمامة بن أشرس وأحمد بن أبي دؤاد وهو أحد رؤوس بدعة الاعتزال في عصره

ورأس فتنة خلق القرآن، وكان قاضياً للقضاة في عهد المعتصم.

•ومن أبرز مفكري المعتزلة منذ تأسيسها على يد واصل بن عطاء وحتى اندثارها وتحللها في المذاهب الأخرى كالشيعة والأشعرية والماتريدية ما يلي:

أبو الهذيل حمدان بن الهذيل الذي أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل بن عطاء،و إبراهيم بن يسار بن هانئ النظام (توفي سنة 231هـ) وكان في الأصل على دين البراهمة وقد تأثر أيضاً بالفلسفة اليونانية مثل بقية المعتزلة .. وقال:بأن المتولدات من أفعال الله تعالى، وتسمى طائفته النظامية. و بشر بن المعتمر (توفي سنة 226 هـ)،و معمر بن عباد السلمي (توفي سنة 220 هـ) وهو من أعظم القدرية وعيسى بن صبيح المكنى بأبي موسى الملقب بالمردار (توفي سنة 226هـ) وكان يقال له: راهب المعتزلة،و ثمامة بن أشرس النميري (توفي سنة 213هـ)، و الجاحظ (توفي سنة 256هـ) وهو من كبار كتاب المعتزلة، و أبو الحسين بن أبي عمر الخياط (توفي سنة 300هـ) من معتزلة بغداد ،و القاضي عبد الجبار (توفي سنة 414هـ) فهو من متأخري المعتزلة، وأعظم شيوخ المعتزلة في عصره، وقد أرخ للمعتزلة وقنن مبادئهم وأصولهم الفكرية والعقدية. ومن العقائد والأفكار التي كانوا يؤمنون بها ما يسمى بالأصول الخمسة الشهيرة التي لا يعد معتزليًا من لم يقل بها وهي: التوحيد و التنزيه المطلق والتوحيد بين الذات والصفات و المنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ب- الأشاعرة :

وهي فرقة كلامية إسلامية، تنسب لأبي الحسن الأشعري الذي خرج عن المعتزلة. وقد اتخذت الأشاعرة البراهين والدلائل العقلية والكلامية وسيلة في محاججة خصومها من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم، لإثبات حقائق الدينوالعقيدة الإسلامية على طريقة ابن كلاب.

وقد أسسها أبو الحسن الأشعري: ولد بالبصرة سنة 270هـ ، كان معتزليا ثم خرج عنهم وأنشأ فرقة مستقلة سماها بالأشاعرة ، توفي سنة 324هـ ودفن ببغداد ونودي على جنازته: "اليوم مات ناصر السنة،" وبعد وفاته، أخذ المذهب الأشعري أكثر من طور، تعددت فيها اجتهاداتهم ومناهجهم في أصول المذهب وعقائده، و ما ذلك إلا لأن المذهب لم يبن في البداية على منهج مؤصل، واضحة أصوله الاعتقادية، ولا كيفية التعامل مع النصوص الشرعية، بل تذبذبت مواقفهم واجتهاداتهم بين موافقة مذهب السلف واستخدام علم الكلام لتأييد العقيدة والرد على المعتزلة . من أبرز مظاهر ذلك التطور: القرب من أهل الكلام والاعتزال والدخول في التصوف، والتصاق المذهب الأشعري به و الدخول في الفلسفةوجعلها جزءا من المذهب.

من أبرز أئمة المذهب:

- القاضي أبو بكر الباقلاني: (ت402هـ) من كبار علماء الكلام، هذَّب بحوث الأشعري، ولد في البصرة وسكن بغداد وتوفي فيها ،و أبو إسحاق الشيرازي: (ت476هـ) العلامة المناظر، ولد في

فيروز أباد بفارس وانتقل إلى شيراز، ثم البصرة ومنها إلى بغداد سنة وظهر نبوغه في الفقه الشافعي وعلم الكلام.و أبو حامد الغزالي: (ت505هـ) (1058-1111م) ولد بخراسان وتُوفِّي بها رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد، فالحجاز، فبلاد الشام، فمصر ثم عاد إلى بلدته، من مؤلفاته الشهيرة كتاب "إحياء علوم الدين. "و أبو إسحاق الإسفراييني: ت418هـ)،و إمام الحرمين أبو المعالي الجويني(ت478 هـ) والفخر الرازي(ت606هـ).

ومن أفكارهم ومعتقداتهم: الكتاب والسنة هما مصدر التلقي عند الأشاعرة على مقتضى قواعد علم الكلام ؛ ولذلك فإنهم يقدمون العقل على النقل عند التعارض، صرح بذلك الرازي في القانون الكلي للمذهب في أساس التقديس والآمدي وابن فورك وغيرهم وعدم الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة لأنها لا تفيد العلم اليقيني ولا مانع من الاحتجاج بها في مسائل السمعيات أو فيما لا يعارض القانون العقلي، والمتواترمنها يجب تأويله.

للاطلاع أكثر والاستزادة ينظر:

1- سعيد فودة**:** بين الفلسفة وعلم الكلام
2- موقع الدرر السنية على الشابكة www.dorar.net
3- شريف طه : علم الكلام بين السلف والخلف
4- ابن خلدون: المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي.
5- الشهرستاني: الملل والنحل. تصحيح وتعليق أحمد فهمي محمد.
6- علي الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة.
7- علي عبد الفتاح المغربي:الفرق الكلامية الإسلامية، مدخل ودراسة
8- البغدادي:الفَرق بين الفِرق، تح محمد محيي الدين عبد الحميد